داء السل

للدكتور عمر شوقى

مدير قسم الصدر ووكيل المجموعة الصحية ببولاق

أمنية ! طالما جالت بخاطرى . وطالما تمنيت على الله أن يحققها . فانى بعد عشرين عاما مارست فيها هذه المهنة السامية . وبعد أن عركت الدهر وعركنى . وبعد أن رأيت كثيرا وسمعت كثيرا . وأتاحت لى مناسبات الأيام وظروفها . أن أزور الفقير فى كسر داره . وألمس بيدى عسره وافتقاره . والغنى فى قصره محفوفا بنضرته ونضاره وفى جدة عزه ويساره ! . رأيت ثم رأيت . رأيت صباحا وضاحا . ومساء قاتما . وعلوا شاهقا وهبوطا ساحقا .

بعد هذا كله تمنيت على الله لو أنى لم أنشأ طبيبا . فبقدر ما استطعت واتسع له جهدى أن أؤديه فى هذه المهنة من تخفيف آلام المرضى ومؤاساتهم وهم يقاسون الأمرين : الداء والفاقة بقدر ما حزت فى قلبى ونالت من نفسى هذه الآلام الانسانية التى سمعتها أذنى ورأتها عينى ، وتلك الفوارق الاجتماعية التى علت بالانسان ، والتى هبطت بالانسان ، فجعلت المسافة بين الاثنين مترامية ، والبون شاسعا : حتى لم يعد القوى يشعر بالضعيف ولا الموسر بالمملق ! وماذا بعد هذا ؟

إنى لأدعو القراء الى الاشتراك معى فى هذه المثوبة ، فيحملون عنى بعض هذه الأثقال التى لا يزال كاهلى ينوء بأعبائها ، فأسرد عليهم ولو قليلا من كثير من ويلات هذا الداء ، وشدة وطأته على الفقراء ، ومن طغيان الانسان بأخيه الانسان ! !

*

كان صباحا — فكتبت تذكرة بصرف قليل من دواء " البلادونا " لأحد المسلولين يأخذه من صيدلية العيادة الخارجية بالمجموعة الصحية فى بولاق ، وكان شابا امتص الداء نضارته وكنت أرجو أن بتناوله هذا الدواء يقف النزيف الدموى عنده . ولعله ينجو من الموت . ولكننى بعد زمن دون الساعة . رأيته وقد فارق الحياة على باب " المجموعة " إذ تدفق النزيف من فمه . وعلمت من ألصق الأقربين صلة به أنه باع دواء " البلادونا " مقابل قروش ثلاثة على نية أن يشترى بها خبزا لأولاده . وهو عاطل مملق بسبب المرض . لا يملك قوت يومه ! ! فعجل به الموت ضحية هذه الرحمة الأبوية . وأنها لغريزة فى النفس . لا محيص عن إطاعة ندائها ...

وكان مساء — سمعت فيه ورأيت شابا من أبناء السراة . وشياطين المال . يخاطب تليفونيا تلك التى سابته قلبه ونهاه . فيقول لها — " فى صندوق الشيكولاته الذى أعديتك أمس إياه . ثلاث صفوف منها . أعتقد أن أولها هو أحسنها " ! ! ...

فأجابته " ليس فى الصندوق إلا صفان " ! فقال " أبحثى فيه جيدا " ! ! ...

فلما أطاعته إذا بها تجد الصف الأول . ورقة جديدة من فئة المائة جنيه ! ! . . . كان يتمنى أن يظفر منها ولو بجنيه واحد ذلك المريض الذى باع دواء "البلادونا" ليبتاع خبزا لأولاده ...

*
* *

وكان صباحا — رأيت فيه أسرة قضت الأم نحبها متأثرة بداء السل بعد أن انتقلت منها العدوى إلى الأب ثم إلى أبناء ثلاثة يقطنون جميعهم حجرة مظلمة فى بدروم رطب لم تبلغه أشعة الشمس . ولم يتسلل إليه ضوء القمر . وقد لا يتزحزح قيد أنملة الهواء الفاسد بين جدرانه . فماذا يصنع الأبناء الصغار وهذا عائلهم أيضا صريع الداء . وهو يقترب رويدا من هوة الفناء ؟ ؟ ...

إنهم لم يفعلوا شيئا أكثر مما أرغمتهم عليه ظروفهم العاتية القاهرة . وهو الصبر والترقب ولكن ماذا كانوا ينتظرون ؟ ؟

لقد كانوا يترقبون رحمة الكرماء من الجيران بهم . إذ ينفحونهم بكسرات الخبز تقيم أودهم . فهل بمثل هذه الكسرات فقط يتمكن أولئك المنكوبون التعساء من مكافحة داء القاعدة الأساسية فى مقاومته هى الغذاء ؟ وإلا فمن أين لهم وسائل العيش الهنئ . وموائد الطعام الشهى ؟

وكان مساء — زرت فيه صبيا مدللا . من أبناء آلهة الذهب . وكان يشكو توعكا طفيفا ، ولكن والديه — والمال بين أيديهم آكام — قد هالتهم شكاية فلذة كبدهم . فاستدعيا لمعالجته طبيبا وثانيا وثالثا . فألفيت تحت وسادة سريره الضخم قدرا كبيرا من الجنيهات الذهبية . وحين لاحت عوامل الدهشة على وجهى . بادرنى والده قائلا : — " لا تعجب فإننا نغريه على تناول الدواء بجنيه من الذهب عن كل ملعقة منه ! ! ... "

فهل لو سمع هذا الوالد الذى أغرق ابنه فى بحر من الذهب بهؤلاء الأبناء المرضى الثلاثة — ورابعهم أبوهم — هل كان يجود عليهم بجنيه واحد ؟

*
* *

وكان صباحا — رأيت فيه صبيا قد نخر السل أضالع صدره . وهو منحن على وعاء القمامة فى أحد الشوارع يأكل منه فتات البطيخ . وقشايات الأغذية ! !

وكان مساء — لبيت فيه دعوة صديق من جمعوا المال جما لما . وقد أخ على لتناول العشاء على مائدته . مع رهط من رفقه. فاذا بالمضيف الرئيسى الذى يتزعم الأغذية "دندى" لا يقل ثمنه فى هذه الأيام عن جنيهين محشو بعشر أقات من التفاح ثمنها عشرة جنيهات ! !

فهل لو رأى صاحب هذه المأدبة ذلك الصبى ، وهو يأكل القمامة ، هل كان يعود مثلى إلى تناول الطعام فى قصره ؟

* * *

وكان صباحا — سمعت فيه ضجة مشادة بين بعض المتوجية ، وبين شاب فتك به السل يحاول الدخول الى المستشفى بعد الموعد بنصف ساعة . وهم يأبون عليه ذلك . وكان تأخره عن الموعد لأنه لم يكن يملك أجر الترام بقاء من شبرا البلد يسعى. وأى سعى يستطيعه مريض مثله ؟ ؟

وكان مساء — جلس الى فيه قيصر من قياصرة الثراء الباحظ يحدثنى بأنه اشترى أخيرا من أمريكا سيارتين الأولى مكشوفة ليركبها. والثانية مغلقة النواحى لتبعه. حتى اذا أمطرت السماء . وتغيرت حالات الطقس . انتقل من السيارة المكشوفة الى المغلقة .

فهل تراه يرجى — صاحب السيارتين — أن يدفع ثمن التذكرة فى سيارة الاوتوبيس لذلك المريض البائس . الذى جاء من شبرا البلد ماشيا ؟؟. . . .

* * *

وكان صباحا — والشتاء يهرت لحم الانسان والحيوان . رأيت فيه مسلولا لا يستطيع أن يتبع المطوة بالأخرى . قد انتعلت قدماه الأرض القارصة الزمهرير . الى حد أن لفحاتها كانت كلفحات النار . وليس على جسمه إلا كساء واحد كاد أن يكون خيوطا لفرط تهلهله .

وكان مساء — رأيت فيه انسانا — لا واستغفر الله — بل تمثالا من الأعيان . وممن جحدوا وجود غيرهم من الانسان. وهو يصب جام سخطه على الأيام . وينهال بلعناته على كل شىء فى الدنيا الا شخصه . وما أجدره بها قبلها . فلما استقصيته الأمر علمت منه أنه يود لو استطاع الفتك بالترزى . لأنه أغفل أن يبطن كمى البالطو بالحرير . وبطنهما بقماش اعتيادى . فهو لهذا يجد صعوبة شديدة فى إدخال يديه بالكمين . . .

فهل يجود هذا "التثال من الأعيان" على ذلك العيان بجزء من عشرين من ثمن معطفه؟ ؟

وآخر غيره حمل على رأسه كل هموم الدنيا لأنه رأى شبيها لبذلته يرتديه غنى ثان . على حين أنه كان موقنا بأن الفابريقة فى انجلترا لا تخرج إلا قطعة واحدة من نوع واحد لقماش بذلته ؟ ؟

فماذا يصنع ذلك الذى لا يجد إلا كساء واحدا مهلهلا ، ليقيه ويلات الشتاء ؟ ؟ .

* * *

وكان صباحا — حولت فيه مسلولا إلى مصحة حلوان . ولما كانت أسرتها مزدحمة بالمرضى . فإن تناوب الأدوار هو المتبع فى دخولها . ولكن هذا المريض لم يدخلها ، فقد فاته الدور وضاعت منه الفرصة . لأنه لم يملك أجرة السفر إلى حلوان .

وكان مساء — حدثنى فيه أحد الذين يبعثرون المال جزافا عن اليمين وعن الشمال أن لديه صندوقا من السيجار الفاخر فى السيارة وآخر فى حجرته الخاصة بالقصر . وثالث فى المكتب . وإن ثمن سيجار واحد من هذا النوع لمن الكفاية جدا لسفر ذلك المريض إلى مصحة حلوان ترافقه أسرته . ومزودا بكل ما يحتاج .

* * *

وكان صباحا — رأيت فيه طائفة من صرعى السل وجميعهم حفاة الأقدام .

ومساء — علمت فيه أن أحد الأغنياء صنع قالبا من الخشب الفاخر بحجم قدميه وأرسله إلى مصنع الأحذية فى انجلترا حتى يصنع له إثنا عشر زوجا دفعة واحدة ثمنها ١٢٠ جنيها .

بل وسمعت عن آخر أنه لم يقنع بقصره . ما يجرى على جوانبه من ترف ونعيم ولم يقنع بمكتبه يحتل شقة فخمة فى إحدى العمارات الشاهقة . فاستأجر إثنين من "الجرسونيرات" بأثاثهما النفيس والخدم والحشم يقضى فى كل منهما أوقات فراغه وما أكثرها ! !

أفلا أقول بعد هذا كله ليتنى لم أشهد الصباح ولم أشهد المساء ، بل ليتنى لم أكن طبيبا والآن ، أى داء هذا الداء العضال ؟ ؟ إنه السل [illegible] ات الرئة أو التدرن الرئوى وإنى لأقدر عدد المصابين به — تبعا لمشاهداتى — بما لا يزيد [illegible] نصف مليون مريض فى مصر . عدا من لم يظهروا لأعين الأطباء فى ضروب المستشف[illegible] ومختلف العيادات .

هذا الداء قد يكون قابلا للشفاء فى بداءة أمره . على أن يكون المريض تحت مباشرة اختصاصى ولا بد من تبكيره فى المعالجة . وإلا [illegible] عليه وتفاقم المرض .

وميكروب السل موجود مستتر عند كل انسان تقريبا . فاذا ما أصاب الضعف صحته في يوم ما لقلة الغذاء . ظهرت عليه أعراض الداء . وكثيرا ما يبدأ السل بدون أن يسبقه ظهور الاعراض . ويسرى بضعة أسابيع فى الجسم . واذا بالمريض يقذف دما من سماء الصحة الصافية والقوة الناضرة ! !

وتنتقل عدوى المرض بواسطة ميكروبه " باشيلس كوخ " الى الأشخاص الذين لديهم استعداد له . أو لمن تسوء تغذيتهم دون المستوى الضرورى لهم أو لأنهم يقيمون فى مساكن غير صحية . أو على أثر الإصابة باحد أمراض البرد . وتنتقل العدوى من بصاق المسلولين على الأرض وسعالهم فى الهواء . وقد يصعب أن تصيب العدوى ذوى الصحة المتينة والبنية القوية .

" المستهدفون للداء :

والأكثر استهدافا لهذا المرض — بصفة خاصة — هم ذوو الصدور المنبسطة العريضة والأضالع الساقطة الى أسفل وأصحاب الرقاب الطويلة . والعيون الواسعة ذات البياض الناصع الشديد أيضا (العيون الدعجاء) والأهداب المستطيلة والأصابع الطويلة الجميلة وتعريف باسم " ايدى مادونا " والسيدات الجميلات القوام والأجسام من نماذج غادة الكاميليا " ترافياتا تيب " .

وكذلك من لم يخلقوا على توافق بين الوان الشعر كأن يكون شعر الرأس أسود اللون جدا . بينما أن شعر الشارب أحمر اللون جدا . وهؤلاء أشد استعدادا فى الاستهداف للداء ، وطبقة النوبيين (البرابره) جميعهم لديهم استعداد للسل الفتاك الذى لا يقاوم . ولم يثبت الى اليوم من الناحية العلمية السبب فى خطورة هـذا الاستعداد . وقد يرجع ذلك الى قلة الغذاء فى بلادهم حيث لا توجد لديهم الكفاية من الماشية التى يغتذون بلحومها والبانها وسمنها . وأما الذين منهم فى القاهرة فان غالبيتهم ينامون وراء " البوابات " على " دكك " من الخشب فى أماكن غير صحية لا تدخلها الشمس .

ومما يذكر فى هذا أن فى مدينة " فيينا " لكل بواب شقة خاصة به فى العمارة تحتوى على حجرة للنوم وأخرى للطعام وصالون . وكل ساكن من السكان يحمل معه مفتاحا ليفتح ويدخل بنفسه عند وقت عودته . بينما أن هذه الطبقة فى مصر غير معنى بها .

وقد تنتقل العدوى بصفة خاصة الى المراهقين الذين ينمو الشعر على ظهورهم .
أما فى الوراثة فقد تنتقل العدوى من الأم إلى الجنين ولكن هذا نادر جدا .

ولكن الأكثر أهمية أن يولد الطفل ضعيفا وبسبب هذا الضعف يتهيأ لديه الاستعداد إذا ما أصيب بالعدوى قبل استكماله العامين من عمره كان مقضيا عليه . لأن المقاومة لا تبلغ أشدها عنده قبل هذه السن أما اذا أصيب بالعدوى بعد سن السنتين فقد ينال الشفاء بالعلاج الجيد والهواء النقى والغذاء الكافى .

أعراضه — لعل الظواهر الواضحة من أعراضه هى ارتفاع درجة الحرارة عند الأصيل ارتفاعا بسيطا حوالى درجة ٣٨ ، ثم غزارة العرق أثناء ساعات الليل وسعال غير شديد الوطأة قد يقترن بالبلغم وفى بعض الأحايين يكون مصحوبا بدم .

العلاج — راحة الجسم والفكر قبل كل شىء ولا بد من الالتجاء الى السرير ما دامت هناك حرارة . والتريض فى الهواء الطلق وتناول الأغذية الكافية بلا افراط مع تغيير أنواع الطعام . والاكثار من أكل الفواكه وتناول زيت السمك والرقاد فى الهواء الطلق بمراعاة عدم التعرض لأشعة الشمس القوية .

ويجب أن يعزل المريض فى مصحة خاصة مليئة بالفنيك لقتل الميكروب . وغسيل ثيابه على حدة . ومن الخير جدا للمريض أن يلجأ الى سكنى الصحراء وان لم فالأرياف ويمتنع عن احتساء الكحوليات والتدخين . واذا ظهر الدم فى البصاق يلتزم الراحة فى السرير مع شرب ملعقة شاى ملأى بالملح . ولا بد من استشارة أحد الاخصائيين .

* * *

وسائل المكافحة — وهى التى يجب أن تتجه اليها كل ضروب الجهود حتى يتسنى القضاء على هذا الداء . أو تخفيف وطأته على الأقل فى بلاد لا يملك خمسون فى المائة من أهلها إلا أجسادهم .

ومما هو جدير بالذكر عن الوسائل الفعالة المتبعة فى النمسا وغيرها من الممالك الغربية لمحاربة السل والزهرى هى أن المصاب بأحد الداءين إذا ضبط سائرا فى المجتمعات العامة يلقى البوليس القبض عليه لإيداعه أحد المستشفيات .

وقد يخيل إلى القارئ أن هذه الاجراءات عنيفة شديدة من ولاة الأمور فى تلك البلاد ولكنهم يفعلون ذلك مع صرعى هذين الداءين لأن لكل مريض بأحدهما سريرا فى المستشفيات . فلماذا لا يدخلونها ؟

ولعل من ألزم الواجبات على الحكومة المصرية كيما تتمكن من مكافحة هذا الداء الوبيل أن تستجلب جهاز الأشعة الجديد الذى ظهر أثناء الحرب فى "فينا" وبه يمكن الكشف على بضعة آلاف مريض فى الساعة الواحدة .

هـذا مع وجوب تدريب مفتشى الصحة فى مختلف أنحاء البلاد على عملية الاسترواح الصدرى ليتمكنوا فى القيام بها للمرضى فى مراكز اعتمالهم .

وأن يتوافر عدد جهازات الأشعة التقالى بحيث تصبح كافية لجميع المراكز فى مديريات الدولة .

والإكثار من إنشاء المستعمرات للناقهين . وهناك نواح من البلاد أكثر صلاحية من سواها لهذا الغرض لجودة هوائها مثل القصاصين وسواحل البحر الأحمر .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى يجب تلقين الشعب من طلبة وصناع وفلاحين وموظفين بأن لا يبصقوا على الأرض وأن لا يسعلوا فى الهواء ، مع العمل المتواصل على تحسين حال الموظف والفلاح والعامل من الناحية المادية .

وتدبير المال اللازم الاسراع فى تشييد المستشفيات لصرعى هذا الداء وقد يكون ذلك بفرض ضريبة خاصة غير باهظة على الأغنياء لمدة سنة أو سنتين .

وهنالك واجب أشد أهمية وأجدر بالأداء ، وهو واجب السراة والأغنياء بعد الذى يقوم بتنفيذه ولاة الأمور .

وأرباب المال فى كل أمة هم مصدر النجدة فيها بما تسخو به أكفهم للعوزين والزمنى والمرضى . تأدية للواجب عليهم نحو البلاد التى عاشوا على أرضها وتحت سمائها فى بلهنية من العيش وسعة من الحياة . ونحو مواطنيهم الذين حرموا طيبات الدنيا من صحة ورفاهية .

ولعل أجدر ناحية يجب أن يتجه اليها سراة مصر بهباتهم وما يتزلون عنه من ثرواتهم هى "جمعية تحسين الصحة النسائية" وحسبها جدارة ما بذلت وتبذل من جهود للعناية بضحايا داء السل ورعاية ذوى قرباهم من ذريتهم وأفراد عشيرتهم

وما أحسب الأغنياء بحاجة الى من يذكرهم بقوله تعالى "ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا" .

وبقول الشاعر

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

دكتور "عمر شوقى"